عنوان البرنامج: مبادئ التصوف وهوادي التعرف
الوحدة الثانية: مدخل لعلم التصوف (2)
الدرس الثاني: علماء الأمة وسلوك التصوف
اسم المحاضر: الدكتور إسماعيل راضي

علماء الأمة وسلوك التصوف

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

التصوف علمٌ عملي يهتم بإبراز المقومات الروحية للإسلام،... هو علمٌ مكمّل ومسدّد لباقي علوم الملة لأنه يهتم بتصحيح القصد وبإعمار القلوب بعلوم: الخشية، والخشوع، والإنابة، وَالوَجل، والاطمئنان، والانشراح، والإخبات، والمراقبة، والمعرفة بالله، والقرب، إلى غير ذلك من المعاني الروحية والإيمانية المسجلة والمسطرة في دين الله...

لما كان التصوف (التربية التزكوية) أصلا لانبعاث هذه القيم الروحية،... اعتمده علماء الأمة منذ صدر الإسلام، واعتبروه أشرف العلوم وأدقّها وأكثرها ضرورة للإنسان:

نماذج صوفية من القرون الثلاثة الأولى: قال الجنيد منذ القرن الثالث الهجري (قواعد زروق، القاعدة 14): «لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم لسعيت إليه».

كان ممن جسد هذا العلم، من أهل الورع والتقوى، منذ القرون الإسلامية الثلاثة الأولى، وإن كنا في المرحلة الجنينية لنشأة التصوف اصطلاحا، وهي المرحلة التي بدأت فيها العلوم الإسلامية تتبلور وتتخصص وتستقل عن بعضها:

- سفيان الثوري، الذي قال: «لولا أبو هاشم الصوفي ما عرَفت دقيق الرياء (اللمع، ص43)»
- الحسن البصري: وهو الذي نبه على التلبيس الذي وقع لبعض الناس في وقته من جرّاء هذا التخصيص؛ حيث لـمّا بدأ علم الفقه يستقل عن أعمال القلوب ويتخصص فقط في أحكام البدن

للمكلفين؛ قال كما في (مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، ص22): «ثار من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد لعلمِ الفتاوى الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة»، وعلم المعاملة للآخرة هو علم التصوف.

- الأئمة الأربعة: مالك وأحمد والشافعي وأبو حنيفة، حيث كان التصوف مجسَّدا وحاضرا بقوة في سلوكهم؛ وقد سلطنا الضوء في حصة ماضية على المكانة التي حَظي بها التصوف عند هؤلاء الأئمة حيث تكلموا فيه وأشادوا به:

ـ رأينا كيف كان الإمام مالك (كما في ترتيب المدارك) يرجع إلى الصالحين لتشرب المعاني الروحية.

ـ رأينا بأن الإمام أحمد (كما في غذاء الألباب) كان يقول: لا أعلم قوما أفضل من الصوفية.

ـ رأينا ملازمة الشافعي للصوفية وقوله في ديوانه: فقيها وصوفيا فكن ليس واحدا..

ـ رأينا بأن أبا حنيفة كان فارسا من فرسان التصوف كما ذكر ابن عابدين في حاشيته

نماذج صوفية من الفقهاء:

- من الفقهاء الأعلام الذين سلكوا التصوف: فقيه القرن الرابع الهجري الفقيه المالكي ابن أبي زيد القيرواني (310-386هـ)، ورسالته الشهيرة تبدأ بعلم العقيدة وتنتهي بالآداب والتربية والسلوك وفضائل الذكر.

- من الفقهاء الأعلام: فقيه ومفسر القرن الخامس الهجري الأسفراييني أبو المظفر (ت471هـ)، وهو الذي أورد فصلاً نفيساً في كتابه (التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين، ص187) قال فيه: «من فصول المفاخر لأهل الإسلام، وبيان فضائل أهل السنة والجماعة، وبيان ما اختصوا به من مفاخرهم؛ ظهور العلوم التي يَفضُلون بها غيرَهم فعدّدها وذكر منها: التصوف فقال: وسادسها علم التصوف، والإشارات، وما لهم فيها من الدقائق، والحقائق، لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ، بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة، والحلاوة، والسكينة، والطمأنينة...».

- من الفقهاء الأعلام: ابن الحاج الفاسي المالكي(ت737هـ)، وقد ذكر الشيخ زروق في إحدى قواعده بأن تصوف الفقهاء يُلتمس عند ابن الحاج في كتابه المدخل.

- من الفقهاء الأعلام: الفقيه ميارة الفاسي (999-1072هـ) وهو أحد سلاطين الفقه بالمغرب في القرن الحادي عشر الهجري، وشيخ المذهب في وقته، وكان من الصوفية المحققين.

نماذج صوفية من المحدثين: بعد أئمة الفقه أسوق نماذج من المحدثين، وأُذكّر بقول ابن الجوزي في صيد الخاطر (ص165)، بأن الاشتغال بالفقه والحديث لا يكفي في صلاح القلوب ورقتها، مؤكدا على الرجوع إلى الصالحين في ذلك، أي إلى التصوف:

- من المحدثين: شيوخ الإمامين البخاري ومسلم، وقد ذكر الحافظ الذَّهَبي في سير أعلام النبلاء التماسهم لأهل الصلاح من أجل رقة القلوب؛ حتى قال في السير (410/15): «العالِمُ إذا عَرِيَ من التَّصوف فهو فارغ».

- من المحدثين: الحاكم النيسابوري الذي استدرك على الصحيحين، حيث قال في مستدركه (18/3): «الصوفية هي الطائفة المنتمية إلى أكابر الصحابة قرنا بعد قرن».

- من المحدثين: الحافظ أبو نعيم (336-430هـ)، والإمام النووي شارح صحيح مسلم (631-676هـ)،... وصولا إلى العائلات الصوفية المعاصرة التي برعت وبلغت رتبة الاجتهاد في علوم الحديث وهي الكتانية والصديقية الغمارية...

نماذج صوفية من المفسرين: بعد أئمة الفقه والحديث أسوق نماذج من أئمة التفسير الذين سلكوا طريق التصوف:

- من المفسرين: الإمام الطبري (224-310هـ) (وله في هذا المعنى كتاب: آداب النفوس، وكتاب: آداب النفس الجيدة والأخلاق النفيسة)

- من المفسرين: أبو حفص النسفي (461-573هـ) (تفسير الكشاف)، والفخر الرازي (544-606هـ) (التفسير الكبير)، وابن كثير (701-774هـ)،...

- من المفسرين المعاصرين: المفسر محمد الأمين الشنقيطي (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، والمفسر محمد متولي الشعراوي، والفقيه الأصولي المفسر الطاهر بن عاشور وتفسيره التحرير والتنوير.

نماذج صوفية من العلماء: من كبار علماء المسلمين الذين سلكوا طريق التصوف:

- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (450-505هـ)

- سلطان العلماء العز بن عبد السلام (577-660هـ) الذي قال: «ما عرفت الإسلام كاملاً إلا بصحبة الشيخ أبي الحسن الشاذلي» (لطائف المنن، 50/1)،

- الإمام السيوطي (849-911هـ)

- الإمام الشعراني (898-973هـ)، وهكذا...

نماذج صوفية من المراكز العلمية: بعد هذه الوقفة الطفيفة مع الفقهاء والمحدثين والمفسرين والعلماء الذين سلكوا طريق التصوف، أقف في جولة سريعة عند المراكز العلمية التي عرفها التاريخ الإسلامي، وعند موقع التصوف فيها وعند علمائها:

- من هذه المراكز، مركز بغداد الذي أُسس منذ العهد العباسي، حيث صارت بغداد عاصمةً للخلافة الإسلامية أنداك، وقبلة للعلماء والدارسين، في هذه المرحلة كان التصوف حاضرا بين العلماء بقوة، وقد أوفد يوسف بن تاشفين إلى عاصمة الخلافة القاضي الأندلسي المالكي ابن العربي المعافري كأوّلِ سفير لدولة المغرب لينهال من ذلك العلم؛ قال أبو بكر بن العربي المعافري (468-543هـ) (العواصم من القواصم، 21/1): «رأيت الإمام الغزالي ببغداد يحضر درسَه أربعُمائةِ عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم«. «وابن العربي المعافري (كما ذكر المنوني في حضارة الموحدين، ص 192) من أول الجالبين لكتاب إحياء علوم الدين للمغرب عام 495هـ». و

- وممن ساهم في هذه المرحلة كذلك في التعريف بالتصوف وبكتاب الإحياء: علي ابن حرزهم (560هـ)، وكان محدثا وفقيها مالكيا ترد عليه الفتاوى فيجيب عنها في الحين (عصر المنصور الموحدي، ص205).

- من هذه المراكز: جامعة القرويين (245هـ)، وكان التصوف بهذه الجامعة حاضرا بقوة مُدارسة وممارسة من طرف علمائها وفقهائها، وهم الذين وضعوا التصوف كثابت من ثوابت الهوية الدينية المغربية:

ـ قال العلاّمة محمد المنتصر بالله الكتاني (فاس عاصمة الأدارسة، ص101) بهذا الصدد: «القرويين منذ أُسست طيلة أحدَ عشَرَ قرنا، ولسنوات خلت، كان يُدرَّس فيها جميع العلوم الإسلامية، من قرآن، وتفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وتصوف...».

ـ قال محمد المنوني (ورقات عن حضارة المرينيين، ص256): «كان جامعُ القرويين وفروعُه مراكز لنشر العلوم التالية: تفسير القرآن الكريم، التجويد، القراءات، الرسم، الحديث الشريف، علوم الحديث، الفقه المالكي بسائر فروعه، أصول الفقه، الكلام، التصوف».

ـ وقال أحمد ابن شقرون في أرجوزته (زهر الآس، ص3) عن جامع القرويين:

فعاش منذ الألف بل ونيف **** وزيد قرنٌ بعد ذاك النيف

مشتغلا بالدرس والتصوف **** متزينا بالعلم والتعرف

- لمكانة علماء القرويين في العالم الإسلامي ولإشعاعهم الصوفي، قام الإمام الشاطبي في القرن الثامن الهجري بمراسلتهم ومكاتبتهم، يستفتيهم في مسائل التصوف (ذكر ذلك الونشريسي في المعيار، وابن خلدون في شفاء السائل، والحسن اليوسي في رسائله).

- لما تأسس المجلس العلمي للقرويين، توالى على رئاسته علماء التصوف؛ كان أولهم العلامة الفقيه الصوفي ابن الخياط الزكاري (ت 1343هـ)، ثم تلاه العلامة الفقيه الصوفي أحمد بن الجيلالي الحسني الإدريسي (ت 1352هـ)، وهكذا...

- من المراكز العلمية: الأزهر الشريف وهو الذي رعى التصوف واعتنى به دراسة وممارسة، ماضيا وحاضرا، وخلّف شيوخُه وعلمائُه تراثا صوفيا ضخما...

- من المراكز العلمية: جامع الزيتونة وجهوده في خدمة التصوّف، وبخاصة النشرة العلميّة الزيتونية لكليّة الشريعة وأصول الدين وعنايتها بعلم التصوف...

نماذج صوفية من تاريخ المغرب: لو عدنا إلى المغرب وإلى تاريخه المبكر، وإلى ما ذكرته ثلاثة كتب رئيسية من تاريخه (المستفاد، والتشوف، والمقصد الشريف)، لوجدناها أرّخت لأزيد من أربعمائة عالم سلَكَ التصوف بالمغرب خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. قال محقق (المستفاد، ص201): «لعل الخاصية التي ميزت متصوفة «المستفاد» هي انشغالهم بمختلف العلوم وتبحرهم في بعضها بصفة خاصة»، ثم قال: «فمن خلال جردنا لمجموع هؤلاء المتصوفة لم نقف على ظاهرة الأمية بينهم، بل نلاحظ أن نسبة كبيرة منهم كانت لها دراية بمختلف العلوم الإسلامية،... أو اشتغلوا بمختلف العلوم وتبحَّروا في بعضها بصفة خاصة...»، وهو ما أشاد به العلامة علال الفاسي (التصوف الإسلامي، ص21) في بيان ميزة التصوف بالمغرب، بقوله: «أن معظم رجاله ودعاته من أهل العلم بأصول الدين وفروعه».

نجد هذا الإشعاع العلمي كذلك مجسدا في علماء الزوايا الناصرية، والعياشية، والدلائية، والفاسية، والكتانية، والمعينية، والصدِّيقية، والبودشيشية، وغيرها... والمجال لا يتسع لذكر ما خلّفه بهذا الصدد العلامة المختار السوسي، والحسن اليوسي، والفقيه المنوني، وغيرهم...

فهذه الجولة القصيرة والسريعة تعبر بحق عن مكانة التصوف عند أهل العلم، وعن سلوكهم لهذا العلم الرباني الذي يهتم بالقلب والوجدان...